التناسق بين اللفظ والمعنى في العربية

بقلم : د. محمد السيد علي بلاسي
كلية اللغة العربية ـ جامعة الأزهر

لقد لاحظ علماء العربية قديما، سرا عجيبا من أسرار فصاحتها، يكمن في دقة مناسبة حروفها لمعانيها، على غير ما هو مألوف في سائر اللغات !

فقد لمحوا أن في كل حرف من حروف العربية قيمة تعبيرية موحية، ولم يعنهم كون هذا الحرف صوتا، قدر ما يعناهم من صوت هذا الحرف أنه معبر عن غرض، وأن الكلمة العربية مركبة من هذه المادة الصوتية التي يمكن حل أجزائها إلى مجموعة من الأحرف الدوال المعبرة، فكل حرف منها يستقل ببيان معنى خاص مادام يستقل بإحداث صوت معين. وكل حرف له ظل وإشعاع، من حيث كان لكل حرف صدى وإيقاع[1] !

وسوف نتحدث عن حالات ثلاثة في العربية ؛ منها يتبين كل هذا بجلاء : ـ

أولا : مناسبة اللفظ للمعنى

ونرى ذلك بوضوح في العربية في أمرين :

أ ـ مناسبة مادة اللفظ للمعنى : ونشاهد ذلك في أحوال ثلاثة :

1 ـ مقابلة الألفاظ بما يشاكل أصواتها من الأحداث : ونعني باللفظ هنا الحرف. فلكل حرف في العربية قيمة تعبيرية هامة في كلمته، فهو مناسب لما وضع له من حدث، سواء كان ذلك الحرف في أول الكلمة، أو وسطها، أو آخرها.

فمثال هذا من الكلمات التي يوجد فيها الحرف أولا، قول العرب : خضم، وقضم. فالخضم لأكل الرَّطب كالبطّيخ والقِثّاء وما كان نحوهما من المأكول الرطب والقضم للصلب اليابس، نحو قَضِمَت الدابة شعيرها، ونحو ذلك. فاختاروا الخاء ـ لرقتها ـ للرطب، والقاف ـ لصلابتها ـ لليابس، حذواً لمسموع الأصوات على محسوس الأحداث[2].

ومثال الكلمات التي يوجد فيها الحرف وسطا، قولهم : الوسيلة، والوصيلة، فالصاد ـ كما نرى ـ أقوى صوتا من السين ؛ لما فيها من الاستعلاء، والوصيلة أقوى من الوسيلة ؛ وذلك أن التوسل ليست له عصمة الوصل والصلة، بل الصلة أصلها من اتصال الشيء بالشيء، ومماسته له، وكونه في أكثر الأحوال بعضا له، كاتصال الأعضاء بالإنسان، وهي أبعاضه، ونحو ذلك، والتوسل معنى يضعف ويصغر أن يكون المتوسل جزءا أو كالجزء من المتوسل إليه، وهذا واضح. فجعلوا الصاد لقوتها، للمعنى الأقوى، والسين لضعفها، للمعنى الأضعف[3].

ومثال الكلمات التي يوجد فيها الحرف آخرا، قولهم : النضح، والنضخ. فالحاء، والخاء، من مخرج واحد، وهو الحلق، ويتفقان في معظم الصفات. والكلمتان تدلان على سيلان الماء، لكن بدرجة متفاوتة، فالنضح سيلان ضعيف، بينما النضخ فوران

الماء ؛ ولذا اختيرت الحاء ـ لرقتها ـ للماء الضعيف، والخاء ـ لغلظها ـ لما هو أقوى منه، وعليه قوله تعالى : ﴿فيهما عينان نضاختان﴾ (الرحمن :66) بمعنى : فوّارتان بالماء لا تنقطعان[4].

يقول علامة اللغة ابن جني : «فهذا ونحوه أمر إذا أنت أتيته من بابه، وأصلحت فكرك لتناوله وتأمله، أعطاك مقاده، وأركبك ذروته، وجلا عليك بهجاته ومحاسنه. وإن أنت تناكرته، وقلت : هذا أمر منتشر، ومذهب صعب موعر، حرمت نفسك لذته، وسددت عليها باب الحظوة به..»[5].

2 ـ تقسيم حروف الكلمة على تقسيم الأحداث : وذلك أن العرب قد تضيف إلى اختيار الحروف وتشبيه أصواتها بالأحداث المعبر عنها بها الترتيبَ، حيث تقدم ما يضاهي أول الحدث، وتؤخر مايضاهي آخره، وتوسيط ما يضاهي أوسطه ؛ سوقا للحروف على سمت المعنى المقصود، والغرض المطلوب.

مثال ذلك : جرّ الشيء يجره، قدموا الجيم ؛ لأنها حرف شديد، وأول الجر بمشقة على الجار والمجرور جميعا، ثم عقبوا ذلك بالراء وهو حرف مكرر، وكرروها مع ذلك في نفسها ؛ وذلك لأن الشيء إذا جر على الأرض في غالب الأمر، اهتز عليها واضطرب، صاعداً عنها، ونازلا إليها، وتكرر ذلك منه على ما فيه من التعتعة والقلق، فكانت الراء ؛ لما فيها من التكرير، ولأنها أيضا قد كررت في نفسها في (جرّ) و(جررت) أوفق لهذا المعنى من جميع الحروف غيرها.[6]

فانظر إلى بديع مناسبة الألفاظ لمعانيها، وكيف فاوتت العرب في هذه الألفاظ المقترنة المتقاربة في المعاني ؛ فجعلت الحرف الأضعف فيها والألين والأخفى والأسهل والأهمس لما هو أدنى وأقل وأخف عملا أو صوتا، وجعلت الحرف الأقوى والأشد والأظهر والأجهر لما هو أقوى عملا وأعظم حسًّا[7].

3 ـ ازدحام الحروف المجموعة في الضابط (لدن طرت) إذا مازجتهن «الفاء» على التقديم والتأخير : فأكثر أحوالها ومجموع معانيها أنها للوهن والضعف. وقد فطن ابن جني لهذه الظاهرة اللغوية العجيبة ؛ حيث أثبت من واقع هذا : صلة اللفظ بمعناه، مهما تغير موقعه من الكلمة بتقليب البناء. وقد مثّل لهذا بـ : (الدالف) للشيخ الضعيف و(التالف) للشيء الفاسد، و(الطليف) للمجان، و(الطنف) لما أشرف خارجا عن البناء، وهو إلى الضعف؛ لأنه ليست له قوة الراكب الأساسي والأصل، و(الدنف) للمريض، و(الطرف) لطرف الشيء، وهو أضعف قطعا من قلبه وأوسطه. قال الله سبحانه : ﴿أو لم يروا أنا نأتي الأرض ننقصها من أطرافها﴾ (الرعد : من الآية 41)، ومنه (الفرد) لأن المنفرد إلى الضعف والهلاك ما هو؛ قال رسول الله الله صلى الله عليه وسلم «المرء كثير بأخيه»، (رواه ابن أبي الدنيا)[8].

ب ـ مناسبة هيئة اللفظ للمعنى : ويبدو ذلك واضحا في ارتباط بعض الصيغ اللغوية بمعانيها الموضوعة لها، وذلك كما يلي :

1 ـ ما كان حكاية للأصوات من مضعف الثلاثي أو الرباعي، مثل : صرّ الجندب، وصرصر البازي. وكذلك المصادر الرباعية، مثل : الزعزعة، والقعقعة، والقلقلة، والصلصلة، فهي تأتي للتكرير، فجعلوا المثال المكرر للمعنى المكرر[9].

2 ـ ما جاء من المصادر على وزن «الفعلان» فإنها تأتي للاضطراب والحركة ؛ نظرا لتتابع الحركات فيها فناسب ذلك تتابع الأحداث، نحو :

الغليان والغثيان. وكذلك ما جاء على وزن «الفَعَلَى» في المصادر والصفات، فإنها تدل على السرعة مثل : امرأة بشكى ـ إذا كانت خفيفة سريعة اليدين. فقابلوا بتوالي حركات المثال توالي حركات الأفعال.

3 ـ المصادر الرباعية المضعفة فإنها تأتي للتكرير، نحو : القلقلة، والجرجرة، والزعزعة.

4 ـ الأفعال التي تجيء على وزن «فعّل» فإنها تدل على تكرير الفعل، مثل : قطّع، وكسّر، وغلّق.

5 ـ تكرير لام الفعل وعينه يدل على المبالغة، يقال : بعير عركرك ـ إذا كان قويا غليظاً.

6 ـ ماورد على وزن «استفعل» فإنه يأتي للطلب، نحو : استسقى، واستطعم، واستوهب. «فالهمزة والسين والتاء» زوائد وردت بعدها الأصول : «الفاء والعين واللام»، وهذا موافق للمعنى ؛ وذلك لأن طلب الفعل والتماسه والسعي فيه يتقدم، ثم تقع الإجابة إليه، فلما تبعت أفعال الإجابة أفعال الطلب، كذلك تبعت حروف الأصل الحروف الزائدة، التي وضعت للالتماس والمسألة[10].

ثانيا : تقارب اللفظ لتقارب المعنى:

ومن أسرار الروعة في لغتنا الخالدة، أن المعاني فيها لها ما يناسبها من الألفاظ المعبرة عنها، وأن حكمة العربي اقتضت أن يضع الصوت مشابها لمعناه، وأحيانا يعبر العربي بطائفة من الألفاظ عن معنى واحد، اختلفت درجاته، فنلاحظ تقارب هذه الألفاظ في الحروف تبعا لتقارب معانيها[11]. وهذا التقارب يكون متحققا في :

1 ـ حرف واحد : مثاله في أول الكلمة : أزّ، وهزّ، قال تعالى : ﴿ألم تر أنا أرسلنا الشياطين على الكافرين تؤزهم أزا﴾ (مريم : 83) بمعنى : تزعجهم وتقلقهم، أو تحركهم إلى المعاصي. وقال عز وجل : ﴿وهزّي إليك بجذع النخلة تساقط عليك رطبا جنيا﴾ (مريم : 25). فالهمزة والهاء من مخرج واحد هو الحلق، والمعنى متقارب، وهو التحريك، إلا أن الحركة مختلفة : فالأزّ تحريك ماله حركة، ويحتاج إلى جهد كالعقول، فتحريكها صعب. والهزّ تحريك ما لا حركة له مما لا عقل له كالجمادات، مثل : الجذع، وساق الشجرة ونحوها. فأتى بالهمزة مع المعنى القوي، وبالهاء مع المعنى الضعيف[12] .

ومثاله في وسط الكلمة : القَرْمة : وهي الفقرة تحزّ على أنف البعير. وقريب منه : قلّمت أظفاري ؛ لأن هذا انتقاص للظفر، وذلك انتقاص للجلد. فاللام في قلّمت أخت الراء في القرمة، والعملان متقاربان[13].

ومثاله في آخر الكلمة : كما في المواد (ج ب ل) و(ج ب ن) و(ج ب ر) لتقاربها في موضع واحد وهو : الالتئام والتماسك. فالجبل فيه معنى الشدة والقوة والالتئام، وجبن الرجل إذا استمسك وتوقف وتجمع، والجبن المأكول فيه تماسك العناصر وتجمعها والتئامها، وجبرت العظم ونحوه إذا لأمته فالتأم وتماسكت أجزاؤه. فتقاربت الحروف هنا ؛ نظرا لتقارب المعاني، مع دلالتها على معنى عام يدخل تحت طيه الجميع[14].

2 ـ حرفين : وقد تقع المضارعة في الأصل الواحد بالحرفين، نحو قولهم : السحيل، والصهيل. فذاك من (س ح ل) وهذا من (ص هـ ل)، والصاد أخت السين كما أن الهاء أخت الحاء، وكلاهما صوت، إلا أن الأول للبغل أما الصوت الثاني فللفرس، فأعطى لكلّ ما يناسبه من الحروف من حيث الشدة والضعف[15].

3 ـ في ثلاثة حروف : وقد تجاوز العرب الحرف والحرفين إلى أن ضارعوا بالأصول الثلاثة :

الفاء والعين واللام. فقالوا : عصر الشيء، وقالوا : أزله، إذا حبسه، والعصر ضرب من الحبس، وذلك من (ع ص ر) وهذا من (أ ز ل) والعين أخت الهمزة، والصاد أخت الزاي، والراء أخت اللام.

وقالوا : قفز، كما قالوا : كبس، وذلك أن القافز إذا استقر على الأرض كبسها.

وقالوا : أفل، كما قالوا : غبر ؛ لأن أفل : غاب، والغابر غائب أيضا، فذاك من (أ ف ل) وهذا من (غ ب ر)، فالهمزة أخت العين، والفاء أخت الباء، واللام أخت الراء[16].

وهذا النحو من الصنعة موجود في أكثر الكلام وفرش اللغة، وإنما بقي من يثيره ويبحث عن مكنونه، فإن أنت رأيت شيئا من هذا النحو لا ينقاد لك فيما رسمناه، ولا يتابعك على ما أوردناه، فأحد أمور ثلاثة :

1) ـ إما أن تكون لم تنعم النظر فيه فيقعد بك فكرك عنه.

2) ـ أو لأن لهذه اللغة أصولا وأوائل تخفى عنا وتقصر أسبابها دوننا ـ كما قال سيبويه.

3) ـ أو لأن الأول وصل إليه علم لم يصل إلى الآخر[17].

ثالثا : قوة اللفظ لقوة المعنى :

فالعربية لغة غاية في الدقة، الألفاظ فيها أدلة للمعاني، فإذا زيد فيها شيء أوجب ذلك زيادة المعنى به، إذ أن زيادة المبنى ـ في العربية ـ تدل على زيادة المعنى. كما أنه إذا انحرف بعض الصيغ فيها عن وضعه، دل ذلك على حادث متجدد حدث غير الأول، دلالة على أن قوة اللفظ لقوة المعنى.

ونرى كل هذا بوضوح في صور كثيرة في العربية منها :[18]

1 ـ تكرار عين الفعل مع الفصل بينهما، كقولهم : أعشب المكان، فإذا أرادوا كثرة العشب فيه قالوا : اعشوشب ؛ فدل هذا على أن تكثير اللفظ لتكثير المعنى، إذ أن اعشوشب أقوى من أعشب.

2 ـ تكرار عين الفعل مع عدم الفصل، نحو : قطع، فإذا أرادوا كثرة التقطيع قالوا : قطّع، فقوة اللفظ دلالة على قوة المعنى.

3 ـ زيادة تاء الافتعال مع المجرد، نحو : قدر واقتدر. فاقتدر أقوى معنى من قولهم : قدر ؛ لذا جيء باسم الفاعل من اقتدر لا من قدر في قول الله سبحانه : ﴿أخذ عزيز مقتدر﴾ (القمر من الآية 42) حيث إن مقتدر هنا أوفق من قادر ؛ من حيث كان الموضع لتفخيم الأمر وشدّة الأخذ. وعد ابن جني كسب واكتسب في قول الله تعالى : ﴿لها ما كسبت وعليها ما اكتسبت﴾ (البقرة : من الآية 286) من هذا القبيل، إذ يقول : وتأويل ذلك أن كسب الحسنة بالإضافة إلى اكتساب السيئة أمر يسير ومستصغر ؛ وذلك لقوله تعالى : ﴿من جاء بالحسنة فله عشر أمثالها ومن جاء بالسيئة فلا يجزى إلا مثلها﴾ (الأنعام : من الآية 160). أفلا ترى أن الحسنة تصغر بإضافتها إلى جزائها، صغر الواحد إلى العشرة، ولما كان جزاء السيئة إنما هو بمثلها، لم تحتقر إلى الجزاء عنها ؛ فعلم بذلك قوة فعل السيئة على فعل الحسنة، ولما كان الأمر كذلك ؛ عظم قدرها، وفخم لفظ العبارة عنها ؛ فقيل : لها ما كسبت وعليها ما اكتسبت، فزيد في لفظ فعل السيئة، وانتقص من لفظ فعل الحسنة ؛ لما ذكرناه[19].

4 ـ العدول عن «فعيل» إلى «فُعَال»، كطويل وطوال، إلا أن طُوال أبلغ معنى ومبالغة من طويل. فالعدول عن معتاد الصيغة نحو من تكثير اللفظ لتكثير المعنى.

5 ـ العدول عن «فعيل» إلى «فُعّال» مثل : رجل جميل، ووضيء، فإذا أرادوا المبالغة في ذلك قالوا : وُضّاء، وجُمّال، فزادوا في اللفظ هذه الزيادة لزيادة معناه.

وبعد : فهذا سرّ من أسرار اللغة كشف عنه علامة اللغة ابن جني، وتبعه العلماء من بعده.

وستظل العربية شامخة مليئة بأسرارها تنتظر من يغوص ليبحث عن هذه الدّرر الكامنة فيها ليجمعها. وأبداً ستعيش الفصحى لتغنى :

أنا البحر في أحشائه الدر كامن
فهل ساءلوا الغواص عن صدفاتي ؟!!

الحواشي :

(1) ـ د. صبحي الصالح : دراسات في فقه اللغة ص 142 ـ بتصرف ـ، ط. العاشرة 1983 م ـ دار العلم للملايين بيروت.
(2) ابن جني : الخصائص، تحقيق محمد علي النجار، 157/2 ـ 158 ـ بتصرف يسير ـ ط 3 سنة 1403 هـ، عالم الكتب بيروت.
(3) المصدر السابق : 160/2.
(4) د. عبد الغفار حامد هلال : اللغة العربية.. خصائصها وسماتها، ص 101، ط 2 سنة 1401 هـ ـ المكتب الحديث للطباعة والنشر بالقاهرة. وقارن بالخصائص : 158/2.
(5) ابن جني : الخصائص 162/2.
(6) المصدر السابق : 162/2، 164.
(7) السيوطي : المزهر، تحقيق محمد أحمد جاد المولى وآخرين، 53/1، ط 3 ـ دار التراث بالقاهرة.
(8) د. صبحي الصالح : دراسات في فقه اللغة، ص 146 ـ بتصرف ـ وقارن بالخصائص 166/2.
(9) د. عبد الغفار حامد هلال : اللغة العربية.. خصائصها وسماتها، ص 112. وقارن بالخصائص : 152/2، 153.
(10) ابن جني : الخصائص، 153/2-157، فراجعه تجد مزيدا من التفصيل.
(11) د. عبد الغفار حامد هلال : اللغة العربية.. خصائصها وسماتها، ص 113 ـ بتصرف ـ.
(12) المرجع السابق : ص 101، 102. وقارن بالخصائص : 146/2.
(13) ابن جني : الخصائص، 147/2 ـ بتصرف يسير ـ.
(14) د. علي عبد الواحد وافي : فقه اللغة، ص 186 ـ بتصرف ـ، ط. دار نهضة مصر. وقارن بالخصائص : 149/2.
(15) د. عبد الغفار حامد هلال : اللغة العربية.. خصائصها وسماتها، ص 103. وقارن بالخصائص : 149/2.
(16) ابن جني : الخصائص : 150/2، 152 ـ بتصرف ـ.
(17) المصدر السابق : 152/2، 164.
(18) راجع هذه الصور بالتفصيل في الخصائص : 264/3-269.
(19) ابن جني : الخصائص 265/3 ـ بتصرف يسير ـ.